

ابن عربي: الشعر والتجربة الروحية... تأسيس الكتابة الشعرية
**Ibn Arabi: Poetry and Spiritual Experience ... The Establishment of
 Poetic Writing**

أ. فتحة عابد، جامعة أبي بكر بلقايد تلمسان- الجزائر

ملخص: تهدف هذه الدراسة في تبيان أنّ اللغة تجربة يعانيتها المتصوف للتعبير عن عالمه وعن كينونته، وعن ذاته، لذلك كانت اللغة حالة رمزية تحاول الوصول إلى مستوى التجربة الروحية، من خلال ما يعرف برمزية اللغة، أو لغة الإشارة عند الصوفية، إنّ اللغة شرط لبناء التجربة، وأداة لتحقيقها. فكانت لغة الرمز والإشارة التي ظهرت من خلال اللغة الشعرية هي المسيطرة على الخطاب الصوفي الإسلامي وخطاب ابن عربي، على الرغم من كون اللغة حجاباً لأنها تجمع بين الصمت والنطق، فهي لغة تنطق بصمت لتدرك الإلهي عن طريق القول الشعري، أو ما يعرف بالكتابة الشعرية.

الكلمات المفتاحية: اللغة، الكتابة الشعرية، التجربة الروحية.

Abstract: This language is a symbolic state trying to reach the level of spiritual experience, through what is known as the symbolism of the language or the sign language of Sufism. Language is a condition for building the experiment, And a tool to verify them. The language of the symbol and the sign that emerged through the poetic language is the dominant of the Islamic mystical discourse and the speech of Ibn Arabi, even though the language is a veil because it combines silence and pronunciation. It is a language that speaks silently to the divine perception through poetry, or poetic writing.

Keywords: Language, poetic writing, spiritual experience

مقدمة

إنّ ما يميّز الفكر الصوفي في تاريخ القراءة العربية والإسلامية للنص الديني (القرآن والسنة)، كونه يفتح الهامش على النص ليعمل على إبراز جميع الإشارات والعبارات. لذلك فالفكر الإسلامي في عوممه، وفروعه المعرفية الكبرى من الفلسفة وعلم الكلام والتصوف درسوا مشكل اللغة. والقارئ لتاريخ الفكر الإنساني يجد أنّه يتميز بمباحث تحدد طريقة الدراسة والفهم. كمباحث المعرفة، الوجود والقيم. كلّ هذه المجالات والفروع فيها تداخل بقدر ما فيها تباعد اللغة بكل مستوياتها لدى المتصوفة، هي عالم قائم بذاته يتمتّع بكل ما يتمتّع به العالم المحسوس والمعقول، غير أنّه لا يظهر على وجه التحقق إلا لأصحاب الكشف، ليصبح التعامل مع هذا العالم غير الظاهر تعاملًا مع موجودات حية، وتضمّر أكثر ممّا تظهر. وهذا ما يجعل اللغة الصوفية محاطة بالغموض والإبهام، لغة تبحث في باطن الأشياء ممّا يجعل تتبع مسارها أمرًا صعبًا فلا يفهما إلاّ مبدع هذه التجربة وفقا لمعاناته، وحسب فهمه لذلك العالم الخفي. إنّ المتتبع للتراث الصوفي يدرك بالضرورة أنّ تجربة العارف أو المتصوف هي تجربة وجودية أنطولوجية تحاكي الإنسان في وحدته الميتافيزيقية المتعالية، وبذلك يتسع أفقه في الحياة بادراكه لرحابة الوجود المطلق.

إشكالية الدراسة:

كيف يؤسس النص الصوفي كتابة جديدة *nouvelle écriture* تتجاوز الأجناس الأدبية الأخرى لتؤسس مايسمى الشعر أو الكتابة الشعرية؟ من هذا السؤال يتضح لدينا مفهومين النص الصوفي (التصوف)، والكتابة الشعرية (الشعر)، فما أساس هذه العلاقة بين التصوف والشعر؟ بهل هي علاقة قرب وجوار؟ أم علاقة امتدادا واختلاف؟ بمنطلق آخر كيف يكون خطاب التصوف خطابا للشعر، ويكشف عن نظام أو نمط جديد في الكتابة الصوفية؟

إنّ الشعر في حدّ تعبير أدونيس: " هو الكلام الإنساني الوحيد الذي يظلّ بطبيعته حرًا، ذلك أنّه يرفض بطبيعته كل شكل من أشكال تمويه الواقع" (أدونيس، 1978، ص 297).

فالكلام أو القول الإنساني ليس له محدودية في هذا العالم الغير محدود، فالحرية شرط جوهري لقيام شعري ابداعي يحاكي أو ينتج لغة إبداعية فنية. لأنّه أكثر قدرة على دفع الإنسان لمعرفة ذاته وانسانيته. من بين كلّ هذا ماعلاقة اللغة بالواقع؟ وبين الشعر والفلسفة أو الميتافيزيقا؟

ولما كانت الفلسفة منذ اللحظة اليونانية تربط العقل بالحقيقة والمعرفة، وتربط الشعر بالإلهام والإنفعال، وتقول أنّ مصدره إلهي، يقيم حيث لا تباث، أي يعبر عنه بالجانب الوجداني الإنفعالي، فقد خصّ أفلاطون Platon الشعر مرتبة ناقصة، وأقل من مرتبة الحواس، جاعلا منها مجرد محاكاة فقط" فالمرتبة الأنطولوجية لموضوعات الشعر أو الفن هي مرتبة عالم ظواهر الظواهر، حيث ماندركه هو محاكاة لمحاكاة الحقيقة المتعالية، فالشاعر أو الفنان في التصور الأفلاطوني معنى في المقام الأول بخلق صورة للوجود العيني" (عادل ضاهر، 2000، ص 63). فالمنزلة الشاعر تقيم حيث الوجود الناقص وهذا ماجعل علاقة الفلسفة ب"الشعر عند افلاطون" (أنظر: محاوره أبون وفايدروس). تنحو منحى الأنطولوجيا الكلاسيكية، مؤكدا على أنّ عالم الحواس هو من عالم الشاعر الفنان، وعالم الماهيات هو عالم الفيلسوف الذي ينتج لغة منطقية واضحة بخلاف الشاعر لغة غير منطقية.

من الواضح أنّ أفلاطون يعترف بمصداقية الفلسفة على حساب الشعر من منطلق أنّ اللغة الشعرية لاتقدم لنا معرفة جديدة تؤدي إلى الحقيقة، فهي تسكن عالما مليئا بالوهم والتخيل، لاتقيم في عالم اللغوس أو الإيدوس الأفلاطوني. ولهذا ذهب أرسطو Aristote على خلاف معلمه افلاطون معتبرا المحاكاة mimesis شرط أساسي في القول الشعري، ويعيد طرح هذا المفهوم على درجة مختلفة بقوله "أنّ مادة الشاعر هي اللغة التي قد تكون ذات كلمات نادرة ومجازات(..) فلو أنّ شاعرا اختار أن يصوّر شيئا ما تصويرا صحيحا، ولكنّه يفشل في تحقيق ذلك بسبب ضعف القدرة على التعبير، فإنّ العيب عندئذ يكون متأصلا في الشعر ذاته"(أرسطو، دس، ص66). بالتالي أنّ اللغة ليس لديها القدرة الكافية على التعبير تبقى عاجزة أمام صرامة العقل الفلسفي اللغوسي. لكن هذا لا يمنع أن نقول أنّ الميتافيزيقا أقرب إلى الشعر بموجب أنّ العبارات الميتافيزيقية قد تكون لها دلالات شعرية، لكن ما تنفرد به هو نمطها في الكتابة.

"لكن هناك من يعتقد أنّ هناك فاصلا أساسيا بين الميتافيزيقا والشعر، بل بين الفلسفة والشعر، كما في أنّ الشعر مثل باقي الفنون، يتميّز بكونه يخضع لمعايير جمالية، بينما المعايير التي تخضع لها الميتافيزيقا أو الفلسفة هي خلاف ذلك جميعا"(عادل ضاهر، 2000، ص84). قد يوجد شعر يقترب من الميتافيزيقا لكن لا يلامس الميتافيزيقا عينها في أساسها. لكن يقاسمها من ناحية اقترابهما للفن كالفلسفة على حدّ تعبير أرسطو أنّه يقترب من الفلسفة أو هو نوع من الفلسفة وهذا ما أعطى له دلالة واضحة مارتن هايدجر واعتبره من معرفة الفلسفة، وكانت نهاية فلسفته على فلسفة الشعر. وقد أعطى الشعر مكانة وأهمية خاصة من خلال نظريته الأنطولوجية.

واعتبر الشعر تأملا في الذات، ذاهبا إلى هولدرن الذي رأى فيه "شاعر الشاعر" (مارتن هايدجر، 1994، ص55). إنّ جوهر الشعر عند هايدجر M. Heidegger يخلق أفعاله من اللغة، وهي " التي تخلق احتمال فقدان الوجود أي الخطر، لكن اللغة ليست فقط خطر المخاطر، فهي بالضرورة تخفي بذاتها ولذاتها خطرا دائما، وهذا الخطر الدائم يكمن في أنّ اللغة تحتل الشفافية والصعوبة"(مارتن هايدجر، 1994، ص57-58).

بمعنى أنّ اللغة في جوهرها تهوى المخاطرة واللعب من أجل ضياع وتيه في هذا الوجود، وقوة هذا الإحتمال تظهر من خلال طاقتها الأنطولوجية، فإذا كانت اللغة عند هايدجر بيت أو مسكن الوجود، فالشعر كذلك له أهمية أنطولوجية يستطيع من خلالها مواجهة أسرار الوجود، وله قدرة على كشف الأشياء في ذاتها.

والتجربة الشعرية هي محاولة اختراق ومجازة لحدود اللغة، وتظهر أهمية الشعر الفلسفية من خلال إمكانات الشاعر الفنان، فالشاعر يفكر شعريا، هذا ما أكد عليه هايدجر. لأنّ الشعر أقرب إلى الوجود المطلق، ويعبر عن الوجود الممكن وبالتالي عن الذاتية، فاللغة الأصلية هي لغة الشعر، لأنّ الشعر وحده القادر على رفع الحجب عن الوجود، الشعر يسمح للأرض والسماء، وتدفع الأعماق وقوة الأعالي بأن تتقابل وتتفاعل، وفي هذا التفاعل يتمّ الإظهار والإحضار"(مارتن هايدجر، 1997، ص217). كانت لغة الشعر هي لغة الإنكشاف والظهور ولربما هذا راجع للمرجعية الفينومولوجية في فلسفة مارتن هايدجر. وفي بحثه عن الحقيقة، فقد أشار الباحث عبد الهادي مفتاح على أنّ حقيقة الوجود " ليست فقط ذات بنية أنطولوجية، بل

شعرية كذلك، أي شعر-أنطو-تيولوجية (poético-onto- Theo- logique)(عبد الهادي مفتاح، 1998، ص56). إنَّ الحقيقة لا تظهر إلا في الشعر أو العمل الفني، باعتبار الشعر من الفنون التي تلازم تجربة الكتابة تلازما حميميا، فأضحت الفلسفة لا تتكلم حقيقة الوجود إلا شعريا. لذا نجد قراءة هايدجر للشعر قراءة أنطولوجية وما نبهه في أنَّ اللغة الشعرية تحمل هذا البعد هو أرسطو.

1. التجربة الشعرية والتجربة الصوفية:

"وإذا كان الشعر في جوهره تأسيسا، فهذا معناه: وضع أساس ثابت وراسخ، إنَّ الشعر تأسيس للوجود بواسطة القول"(عبد الرحمن بدوي، 1982، ص114). وأساس بناء الحوار بين الفلسفة والشعر هو مسائلة الوجود، ليصبح الشعر سؤال للذات والكتابة، والقول هو الكلام سيجد وجوده وتبنيته عبر الكتابة، فغدت الكتابة تحوُّلا نحو تعبير مغاير.

"والكتابة بالمعنى الإبداعي، الحديث، لم تنشأ إلا في القرن الثامن، وقد وصلت إلى درجة عالية من النضوج والتنوع مع المتصوفة"(أدونيس، 1978، ص24)، فأين تتجلى علاقة التصوف بالشعر؟ وما طبيعة كل من التجربة الصوفية والتجربة الشعرية؟ وكيف يخلق النص الصوفي نمطا وأسلوبا جديدا في الكتابة؟ وعلى أي أساس تأسس هذه الكتابة التي سمينها بالكتابة الشعرية؟ إنَّ التصوف باعتباره تجربة ذاتية ووجودية ذات عمق يتجاوز الحدود، لا يمكن أن يظل بعيدا عن الشعر، فكلهما ينتميان إلى الألم والمعاناة والتراجيديا، معبرين عنها بلغة رمزية لا تشبه اللغة العادية المتداولة. وعبر الشعر يتم الكشف عن تلك المعاناة. بمأنَّ التصوف يفكر في الوجود فعليه أن يبقى قريبا من القول الشعري le dire poétique، فهو الحاجب voilant والكاشف dévoilant في الوقت نفسه.

"إنَّ علاقة الصوفية باللغة تبقى محكومة بمفارقة أساسية لا سبيل إلى تجاوزها، ذلك أنَّ اللغة بخصوص هذه التجربة، تتبدى شرطا وعائقا في آن معا، ولا شك في أنَّ هذه المعضلة قد أرقت الوعي الصوفي، وجعلته يصطدم بها، إذ وجد نفسه، في نزوعه إلى المطلق، واقعا في شركها، ومقيدا بحدودها"(وفيق سليطين، 2013، ص15).

وجود منطقيين الشعري والصوفي لديهم عمق في الرؤية والمعرفة، وتختلف الرؤية بينهما إلا في طريقة التعبير وعمل القلب والإنغلاق والانفتاح ليؤسس اختلافه وهويته المغايرة كمطلب لهوية متأصلة في جوانية الذات. فلجوء المتصوفة إلى الشعر على أساس أنَّ الشعر الغاية القصوى للتعبير في التجربة الصوفية، ولعلَّ أبرز من وثق هذه العلاقة في الدراسات العربية المعاصرة الجادة هو الشاعر المفكر أدونيس التي كانت نظريته إلى التصوف باعتباره "حدا شعريا"(أدونيس، 1979، ص130).

إنَّ الشعر هو فن من الفنون، وإذا كان أداة من أدوات التعبير عن الحقيقة، فأين يكمن التقاطع الشعري مع الصوفي؟ إنَّ دهشة وانخراط كل من الصوفي والشاعر أثناء التعبير عن تجربتهما يتلاقيان في الذاتية والأبعاد الفنية والجمالية، ففي كلام شعر نشوة فنية تتجاوز المرئي لتغدو إلى اللامرئي آتية من عمق الوجود المحتجب، فيلتقي الشعر والتصوف في تجربة الفن.

"فاللغة الشعرية تتجلى في قدرتها على تجسيد قيمة الخفاء والتجلي، والحضور والغياب(..)، وعلى هذه الرؤية الجمالية للغة القائمة على تجاوز حدود العلاقات المنطقية والتقليدية بين الأشياء والكلمات، يولد النص الشعري الصوفي القائم على نظرة شديدة الإبداعية والتحرر إتجاه اللغة، لذة فنية تشكل نوعا من الكشف الصوفي" (سفيان زدادقة، 2008، ص229). وتكمن أصالة ووجاهة هذا الإبداع في أخذ الكتابة نمط وأسلوب جديد يشمل إختلافا داخليا، ويتجاوز حدود الكتابة أو اللغة العادية لا تعرف الإستقرار والتبث. وإنّ الكتابة الصوفية كانت نثرية أم شعرية تنفرد بميزة الإبداع، ويرتبط هذا الأخير بالتجربة الصوفية وطبيعتها، لانها تجربة معاناة وألم وشوق واشتياق للأخر المطلق، أو المقيد، "فالشعر عند الصوفية لغة الألم والشوق والنواح والحرمان والوجد والسعادة والسماح، إستبطان جمالي لتجربة روحية تتجاوز الرؤية العادية للأشياء" (سفيان زدادقة، 2008، ص209).

إنّ مشكلة الصوفي الجوهرية هي في كيفية أو طريقة التعبير عن تجربته الخلاقة، التي أنتجت لغة من شأنها معاودة خلق عالم آخر مغاير، عالم الباطن، بلغة الصمت والكلام فتتحقق اللحظة الموعودة، ويحدث التواصل بين الشعر والتجربة الروحية، وهذا ما أشارنا إليه في أنّ تأسيس الوجود يكون عن طريق الكلام أو القول عند هايدجر. لكن السؤال المطروح هنا هو: كيف يتمّ الإلتقاء والقرب بين التجريبتين؟

إنّ التجربة الصوفية تركز كثيرا على الخيال، خاصة الخيال الأنطولوجي، وتعتبر تجربة ابن عربي خير مثيل على ذلك، وقد اعتبر الخيال قوة إنسانية مبدعة، وبمأنّ الإبداع يتميّز به الشعر أيضا. فكان الخيال هو اللقاء الرابط بين التجربة الصوفية والتجربة الشعرية، لأنّ لغة الإبداع في الشعر لها بعد خيالي مرتبط بالتجربة المعاشة. لكن ماهي الصلة بين الخيال الصوفي والخيال الشعري؟

لقد لجأت كلا التجريبتين إلى وسيط وهو الخيال، والخيال كما أشرت سابقا نوعين الخيال المتصل بالذات والخيال المنفصل عن الذات، وللخيال أهمية بارزة في تصوف ابن عربي، وأوله أهمية قصوى باعتباره قوة إنسانية مبدعة وخلاقة، ويقول ابن عربي في هذا الصدد:

"إنّ خيال الكون أوسع حضرة
من العقل والإحساس بالبدل والفضل
له حضرة الأشكال في الشكل واعتبر
تراه يرد الكل في قبضة الشكّل
فإن قلت الكل فهو جزء مع
وإن قلت جزء قام لل بالكل" (ساعد خميسي، 2010، ص222).

وهذا ما يحدث عند الشاعر أيضا، فالخيال الشعري يصف بالإدراك للقوة المحسوسة وتسمى مخيلة، أو ملكة الخيال، يتحدد الخيال في الشعر ويعتبر أداة فنية للإبداع الشعري، وملكة وقوة باطنية تمثل جوهر الوجود، يتميز الخيال الشعري الأداة الإبداعية التي تخلق التناسب بين اللغة الشعرية وجماليتها، يصبح وسيلة لعودة الشعر باعتباره تعبير جمالي عن النشاط الإبداعي للخيال. يتمتع التراث الصوفي بإنجاز ثري من الشعر تخترق كل الحدود، وتتجاوز كل المسافات، وقد ظلّ الخطاب الصوفي والخطاب الشعري أي الخطابات الرمزية يحدثان نوعا من " الإدراك الرمزي له منطقه الخاص ، والذي يلتقي في كثير من أسئلته عميقا ووجوديا مع إشكالات راهنة

يعالجها العلم متخلياً عن تصوراته التقليدية الوضعية، هناك إذن ملتقى أساس بين الخطابين الصوفي والشعري يتمثل فيما يسميه جليبور دوران الواقعية الخيالية *réalisme imaginaire* أي قوة إبداع وبناء" (العربي الذهبي، 2000، ص80).

إنّ الخيال كما قلنا فعل ابداعي في كلا الخطابين الصوفي والشعري" حيث لا يقتصر دور الفعل الخيالي على كونه وسيلة نفسانية بل غاية أنطولوجية، عالماً أكثر واقعية بالنسبة للإنسان من عالم الوسائل الإدراكية والبرهانية" (العربي الذهبي، 2000، ص81)، لأنّه ينطلق من تجربة كونية وجودية نحو العالم الجديد، والأساس في هذا اللقاء بينهما هو بلوغ المطلق، " ففي العمل الشعري والمجاهدة الصوفية، تجريب شخصي متّسم بالفراة في مواجهة الوجود ومتعلقاته الرمزية، باتجاه السؤال الكبير للكينونة ذاتها، يتمّ ذلك عبر السعي الدائم للقاء حميم بالمطلق، ولفظ اللقاء هنا، على سبيل المجازفة المغامرة، اللقاء كمسلك للإقتراب" (العربي الذهبي، 2000، ص81).

لقد اختلفت الصوفية في درجة مزجهم بين البعد الأنطولوجي للذات العميق، وبين التأمل العقلي، وهذا ماجعلهم يأسسون للغة تتماشى مع طبيعة تجربتهم. "إنّ الكتابة في نشاط التصوف والشعر، ستظلّ محكومة بالتجدد المستمر، وبالإندفاع الذاتي الذي يجعلها تبارح منجزها، وتنطلق صوب أفاق مغايرة، بحكم توتيتها نحو المطلق، وانفتاحها عليه. " (وفيق سليطين، 2013، ص89).

إنّ الشعرية عند المتصوفة تبحث أو تكشف عن عمق الكينونة، وهذا الكشف يبرز دور الخيال في العملية الإبداعية، لذلك نجد أغلب الصوفية إقتربوا إلى فن الشعر لما يحتويه من رمزية. إذن تظهر أهمية القراءة الصوفية للشعر من خلال علاقة الإنسان بالوجود، هذه القراءة ركزت على الشعر باعتباره تجربة وجودية، وقد اهتمّ ابن عربي بعلاقة الشعر بالعالم والجسد، فيغدو الشعر أساساً جوهرياً يمثل الإنسان والوجود، اعتنى ابن عربي بالشعر عناية خاصة، وأعطى للشعر أساساً وجودي، وآخر معرفي خيالي، بالنسبة للأساس الوجودي تأمل ابن عربي علاقة الشعر بالوجود، وعلاقة الشعر بالجسد، " ومع أنّ الحدود بين العالم والجسد تضيق في تأملات ابن عربي، على نحو ما أوضحه في كتاب التدبيرات الإلهية في إصلاح المملكة الإنسانية، فإنّ الإنتقال من العالم الكبير إلى العالم الصغير الذي هو الجسد" (خالد بلقاسم، 2004، ص147).

2. الألوهية والشعر عند ابن عربي:

لقد تأمل ابن عربي الشعر بمفاهيم توجي إلى الجسد، بحيث أصبح وجود الإنسان غير منفصل عن الشعر. وإلى جانب الأساس الوجودي هناك الأساس المعرفي الذي يستند على ملكة الخيال بوصفه ركن مهم من أركان المعرفة.

ولبلوغ ما هو أساسي في الشعر والكتابة الشعرية في تجربة ابن عربي إرتأينا تحديد ديوان ترجمان الأشواق، بوصفه تجربة في العشق، والمكان الأمثل لتجلي العلاقة بين الشعر والتصوف، والتأسيس للكتابة الشعرية الصوفية. والذي يميز الشعر عند الصوفية عموماً هو ذلك البعد الأنطولوجي الباطني.

وقبل هذا نورد الحديث عن الحب الإلهي، إنّ الحب من سمة الشعر والشعراء اللذين أسسوا للغة خاصة وجميلة عن العشق، فأجمل الكتابات هي أن يكتب المحب لمحبوبه بكلّ حب وعشق،

وذلك باختلاف نوعية الحب سواء أكان إلهي، أو إنساني. وسنركز على الحب الإلهي الذي ظهر جليا في ديوان ابن عربي لحدّ تشبيهه المرأة بالذات الإلهية. " يأتي الحب الإلهي التي يخصها ابن عربي، فيما يبدو بالصوفية الذين يجعلون من سلوكهم الصوفي نوعا من التخلّق بالأخلاق الإلهية، ومادام الحب صفة إلهية أزلية، فقد حاول الصوفية الأوائل أن يرقوا بتجربتهم من المستوى البشري العادي إلى مستوى خصوصي جدا هو التشبه بالحب الإلهي الأزلي" (عبد الحق منصف، 2007، ص84).

أي حب الله للعالم والموجودات سيكون حب إلهي أزلي، وحب الصوفية لله سيأخذ المنحى الإنساني، إنّ حب الله للعالم من خلال الموجودات، التي تنصدر بفعل معرفة الله في جميع صورته، أمّا الحب الإلهي فيتعلّق بالوجود الإلهي الذي هو حادث وليس أزلي" لأنّ الإنسان صورة وجودية مركبة فهو صورة للألوهية والعالم، فقد كان أيضا الحب الإلهي متعدد الإتجاهات، فهو حب للألوهية من جهة، وتجلياتها عبر أشكال موجودات العالم أيضا" (عبد الحق منصف، 2007، ص84).

إنّ الحب الإلهي هو حب جامع لكل مظاهر الألوهية، والإنسان، إنّ الحب الإنساني للألوهية يفتح على كلّ المراتب والأشكال الوجودية، إذ سيصبح حب المرأة من الحب الإلهي، حب كوني يبلغ كل المستويات التي تؤدي إلى الجمال الإلهي الذي يتجسد أو يظهر من خلال المرأة. لأنّ الحب غاية الجمال والله جميل يحب الجمال.

إنّ تصوير الصوفية للحب وحدوا أو جمعوا في تصنيفهم بين الإلهي والإنساني، والروحي والجسماني، وفي هذا التوحيد يتمّ تجاوز ثنائية الروح والجسد، فتعتبر المرأة صورة تجلي من تجليات الله تبرز المرأة بوصفها رمزا على الله المتجلي. إنّ المرأة في التعبير الصوفي تعبر عن الحب الإلهي، وهذا لا يفهم إلا رمزا، لأنها الرمز الأكمل لتجلي الألوهية، وهذا ما يجمع بين الخاصية الإنسانية والإلهية وتكون بذلك مظهرا من مظاهر الجمال الإلهي، "إنها رمز الحكمة والحب، وإنّ جمالها ما هو إلا أمانة على الجمال الكلي الدائم" (أسماء خوالدية، 2014، ص58). إذن المرأة هي رمز في التعبير عن المواجد الإلهية.

كما أنّ حب المرأة محطة هامة نحو الحب الإلهي أو العشق الإلهي، لذلك نجد ابن عربي يلح على ضرورة الحب الإنساني الذي سيكون تمهيدا ولقاء للحب الإلهي، "فالحب الإنساني هو الخبرة الأولى التي لا بد أن يتأسس عليها" الحب الإلهي" وأن "حب النساء" يعد من صفات الكمال الإنساني، مرتكزا في ذلك على مرويات تنتسب للنبي (ص) مثل: "حبيب إلي من دنياكم ثلاث: الطيب والنساء وقرّ عيني في الصلاة" (أسماء خوالدية، 2014، ص58).

إنّ حب الألوهية لديها أشكال مختلفة، لدرجة الإفتتان "وإذا كان الجمال الإلهي يفتن ويدهش الإنسان، فإنّ هناك مظهر آخر للألوهية يفزعه ويجدّر فيه الإحساس بالمحدودية ومشاعر النقص والنهاية، هو مظهر الجلال الإلهي" (عبد الحق منصف، 2007، ص98). لقد ربط الصوفية الحب بالتجلي الجمال الإلهي، وهذا التجلي يرتبط بالإيجاد، فتوضحت لنا أنّ الألوهية في جوهرها تعبر عن الحب يقول ابن عربي:

"ولما رأينا الحب يعظم قـدره ومالي به حتى الممات يـدان

تعشقت حب الحب دهري ولم أقل كفاني الذي قد نلت منه كفاني" (ابن عربي، 1985، ص322).

لقد خاطب ابن عربي في ديوانه هذا المرأة التي اختزلت في شخص نظام الملقبة بعين الشمس، "إن ابن عربي يخاطب الأنوثة في هذا الشعر على مستويين: مستوى أول يرتبط إمّا بالألوهية، أو بالطبيعة، أو بالمرأة، ومستوى ثاني عميق يرتبط بالسر الذي يوحد هذه المجالات هو سر الأنوثة السارية في العالم" (عبد الحق منصف، 2007، ص141). ولكن ما يهمننا في هذا المبحث هو العشق الإلهي وكيفية تجليه في الخطاب الشعري الصوفي من خلال شعر ابن عربي حول المرأة. والذي يهمننا هنا هو المستوى المرتبط بالألوهية والعشق الإلهي.

لقد استنكر الفقهاء هذا الديوان ورفضوه وصله بالأسرار الإلهية، ممّا جعل ابن عربي يكتب شرح لهذا الديوان أسماه ذخائر الأغلاق لشرح ترجمان الأشواق، وجاء هذا للدفاع عن تجربته، التي تأولت الحب ودرجة الجنون فيه وهو العشق بما هو تجربة مع الإلهي. يقول ابن عربي في شرحه:

"كلما أذكره مما جرى ذكره أو مثله أن تفهمه
منه أسرار وأنوار جلت أو علت جاء بها رب السما

فاصرف خاطر عن ظاهرها واطلب الباطن حتى تعلم" (ابن عربي، 1966، ص11).

نلاحظ في هذه الأبيات دعوة ابن عربي، إلى تجاوز الظاهر إلى الباطن، لقد تألم ابن عربي في هذه القصيدة ولم يجد شفاؤه إلى على امرأة نظام صاحبة البيت القصيد هنا، فألم الذات الكاتبة طاغي بشكل ملفت وحزين، لذلك نجد أنّ شرح ابن عربي لترجمان الأشواق قد نحا منحى تأويلي باطني، وتجاهل الظاهر، وقد تضاربت الآراء فيما يخص أساس هذا الديوان، واقروا بأنه "أقرب إلى تجربة ابن عربي الوجدانية الخاصة منها إلى التجربة الروحية الصوفية، فغلب الظاهر على الباطن، خلافا لابن عربي الذي غلب الباطن على الظاهر في شرحه" (خالد بلقاسم، 2004، ص169). وفي علاقة الظاهر بالباطن في هذا الإطار حديث عن المحل والتجلي، فقيمة التجلي تظهر من خلال المجلى، وصورة هذا المجلى يأخذ معنى الظاهر، فإنّ به يتحدد الباطن، لذلك ذهب ابن عربي أنّ محل التجلي الإلهي هو المرأة، لقد تبين لنا أنّ ترجمان الأشواق تجربة خاصة وعميقة في العشق، فهي إعادة كتابة تستند إلى الخيال، فيتميز شعر الصوفية أساسا بارتباطه بتجربة مع المطلق.

نتائج الدراسة:

يعدّ الشعر منبع أساسي من منابع الأدب الصوفي، لهذا كانت العلاقة بين الشعر والتصوف لها ترابط عميق وتجسدت من خلال اللغة. من هنا كانت اللغة عند ابن عربي هي الموجود ذاته، بعبارة أخرى لغة كشف للموجود، وتتكشف في لغة الوحي (القرآن)، ولغة الإلهام (الشعر)، ويسمع الموجود (الإنسان) نداء هذه اللغة من أعماق الباطن.

-إنّ اللغة في التصوف وعند ابن عربي هي لغة الحوار بين الله والإنسان، ووصل بين العالمين المرئي واللامرئي من خلال التجربة التي يعيشها الصوفي.

-إن الرغبة في كشف هذه التجربة تظهر من خلال التعبير التي تتجسد أساسا في الشعر، عن طريق تأسيسه للكتابة الشعرية.

-إن الكتابة الشعرية تعتبر الوسيلة الأولى التي وظفها ابن عربي للإفصاح عن الأسرار، وبالتالي الوصول إلى المعرفة، فبواسطة هذه اللغة الشعرية يكشف الصوفي عن عالمه.

-اللغة الرمزية عند ابن عربي هي اللغة الكونية الوجودية، والتي عرفت وجودها من خلال القول الشعري باختلاف أنواعه العذري، الغزلي... الخ.

-الشعر عند ابن عربي هو بمثابة إعادة كتابة تستند إلى الخيال، فيها تظهر علاقة الظاهر بالباطن، من خلال التجربة مع المطلق(الله)، معبرا عن عشقه للمطلق عن طريق المرأة، أو الرمز بالمرأة، ما يعرف بالعشق الإلهي.

خاتمة:

وهكذا إنتهى ابن عربي إلى نظرة تتأسس على وجوبية القول بأن الشعر من أهم محطات للتعبير عن التجربة الروحية التي يحيها أو يعيشها العارف المتصوف، ومن هنا نجد أن النتيجة الضرورية التي يصل إليها ابن عربي تفيد بأن التجربة الروحية (التصوف)، والتجربة الشعرية (الشعر) متلازمان وجمعهما هو كشف عن حقيقة العلاقة بين الإلهي والإنساني في هذا الخطاب من خلال ثنائية الظاهر والباطن، وتأسيس لكتابة شعرية داخل النص الصوفي مرتكزا الخيال.

فالتصوف باعتباره تجربة فردية وجودية، فلا يمكن أن يظل بعيدا عن الشعر باعتبار هذا الأخير من الأجناس الأدبية التي لها تأثير عميق في الإنسان خاصة، وذلك من خلال الأحاسيس والوجدان، وهذا ما يرتبط به أساسا التصوف. أي اللغة المعبر عنها داخل هذا النص. فكانت تجربة اللغة من أهم التجارب التي مرّ بها المتصوفة وخاصة ابن عربي في طريقة تأسيسهم للكتابة وبالأخص الكتابة الشعرية، ومن هنا جاء مطلبهم في التعبير هو الإخبار عن هذه التجربة، لذلك جاء الشعر عند ابن عربي كما مارسه بوصفه شعر في العذرية والمتعة موجه للمرأة.

إذن تتجلى لغة المتصوفة في مدى قدرتها على ربط الكتابة بالألوهية مجسدة في المرأة، بعبارة أخرى تأسس الشعر عند ابن عربي على جانب لغوي أنثوي. فالشعر في التجربة الصوفية هو لغة للألم والوجد والشوق، وكذلك العشق، ويركز الصوفي على علاقته بالمطلق على الحب الإلهي، الذي يعبر عنه ابن عربي من خلال عشق المرأة.

قائمة المراجع:

1. ابن عربي(1985)، الفتوحات المكية، الهيئة المصرية العامة للكتاب.
2. ابن عربي(1966)، ترجمان الأشواق، دار صادر، بيروت.
3. أدونيس(1978)، الثابت والمتحول، بحث في الإبداع والإتياع عند العرب، صدمة الحداثة، دار العودة، بيروت.
4. أدونيس(1979)، مقدمة في الشعر العربي، دار العودة، بيروت.
5. أسماء خوالدية(2014)، الرمز الصوفي من الإغراب بداهة إلى الإغراب قصدا، منشورات ضفاف والإختلاف، بيروت، الجزائر.
6. أرسطو(بدون سنة)، فن الشعر، مكتبة أنجلو المصرية.
7. العربي الذهبي(2000)، شعريات المتخيل إقتراب ظاهراتي، دار المدارس، الدار البيضاء.

8. خالد بلقاسم (2004)، الكتابة والتصوف عند ابن عربي، دار توبقال، المغرب.
9. ساعد خميسي (2010)، ابن العربي المسافر العائد، منشورات الإختلاف ودار العربية للعلوم ناشرون، الجزائر، بيروت.
9. سفيان زداقة (2008)، الحقيقة والسراب، قراءة في البعد الصوفي عند أدونيس، منشورات الإختلاف، الجزائر.
10. عادل ضاهر (2000)، الشعر والوجود، دراسة فلسفية في شعر أدونيس، دار المدى للثقافة والنشر، سوريا.
11. عبد الحق منصف (2007)، أبعاد التجربة الصوفية، الحب، الإنصات، الحكاية، إفريقيا الشرق، المغرب.
12. عبد الهادي مفتاح (1998)، الشعر وماهية الفلسفة، مجلة فكر ونقد، العدد الثامن، دار النشر المغربية، الدار البيضاء.
13. مارتن هايدجر (1994)، إنشاد المنادى، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء.
14. مارتن هايدجر (1997)، نداء الحقيقة، دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة.
15. وفيق سليطين (2013)، الشعر والتصوف، دار الحوار، سوريا.